حين تشجع تصريحات السَّاسة ظاهرة الخوف من الإسلام "الإسلاموفوبيا"



بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ومن والاه..

تُعرَّف الإسلاموفوبيا بأنها الخوف من الإسلام أو العداء له وللمسلمين، استناداً إلى ادعاءات مختلقة، وتعميمات مجحفة، وأحكام مسبقة، وما يترتب على ذلك من تحيّز أو تمييز أو تحريض ضدهم بسبب دينهم. وهي تختلف عن النقد الموضوعي للأفكار والممارسات، الذي يستند إلى الحجة وحقائق التاريخ ويحفظ كرامة الإنسان وحقوقه.

وتنشأ هذه الظاهرة وتتسع بفعل الجهل بالإسلام، والموروثات التاريخية السلبية، والصور النمطية التي تربط المسلمين بالعنف والتخلّف. وتغذّيها صراعات المصالح والهيمنة، والمخاوف المرتبطة بالهجرة والاختلاف الثقافي، وخطابات إعلامية تعمّم أخطاء البعض على الجميع. وفي هذا المناخ، يستثمر بعض الساسة تلك المخاوف في المنافسات الانتخابية، فيحوّلون التحيّز القائم إلى وسيلة لحشد الأنصار وكسب الأصوات.

حين تصبح الكراهية خطاباً انتخابياً

في 26 أكتوبر 2026، خلال تجمع انتخابي في ولاية ميشيغان دعماً للمرشح الجمهوري مايك روجرز، في حملته الانتخابية ضد منافسه عبد الرحمن السيد الأمريكي المسلم من أصل عربي، صرح روبرت كينيدي الابن — وزير الصحة والخدمات الإنسانية الأمريكي — بأن هناك 500 مليون عربي لا ينتجون العلوم، ولا يفوزون بجوائز نوبل أو فيلدز أو وولف، ولا ينتجون الأدب. وربط هذا الوضع بتأثير جماعة الإخوان المسلمين، التي زعم أنها أنتجت مجتمعات راكدة.

كانت هذه التصريحات صادمة لفريقين: العرب والمسلمين في داخل أمريكا وخارجها، لما تحمله من عداء وعنصرية؛ والمنصفين من المواطنين الأمريكيين الذين تأكد لديهم أن بعض المسؤولين عندهم يهدرون حقوق المواطنة الأمريكية، وقيم الدستور الأمريكي التي لا تفرق بينهم بسبب العرق

والدين.

وهذا الانتقاص من الناس بسبب أصولهم يناقض ميزان الكرامة الإنسانية الذي يقرره القرآن، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء: 70].

وزاد من ثقل هذه الصدمة أن الرئيس الأمريكي دونالد ترامب نسج على المنوال نفسه، فأدلى في هذا السياق الانتخابي بتصريحات عنصرية ضد الدكتور عبد الرحمن السيد، وزاد بتلميحات أشد عنصرية دينية وعرقية.

إن تصريحات الرئيس ووزير الصحة تعيد إلى الذاكرة أجواء تجاوزتها البشرية بعد أن دفعت أثمانًا باهظة في الحرب العالمية الثانية ضد من زعموا سيادة الجنس الآري، وضرورة تفوقه على غيره.

وقد أبطل القرآن دعوى التفاضل بالأجناس والأعراق، وردّ الناس إلى أصل واحد، وجعل اختلاف شعوبهم سبيلًا للتعارف، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: 13].

ومن اليسير سرد الحقائق العلمية المستقرة التي تبرئ كل عرق بشري من وصف التخلف الجيني الذي يجعله أدنى من غيره، وتثبت أن لكل حضارة كبرى نصيبًا من التراكم الحضاري والعلمي الذي وصلت إليه البشرية عبر القرون.

ومن هذه الحضارات حضارة الإسلام التي اتسعت لكل الحضارات الموروثة في عالمنا الممتد، واستوعبتها، وأضافت إليها نتاجها الخاص، وتشهد بذلك مدونات تاريخ العلوم، كما تشهد به كتابات المنصفين من علماء الغرب أنفسهم، مثل جورج سارتون وتشارلز بيرنيت، فضلًا عن ول ديورانت، وغوستاف لوبون وتوماس كارليل وسيغريد هونكه وغيرهم، فالقائمة تطول.

التأخر العلمي بين الاستبداد والاستعمار

فإن قيل إن التخلف الحضاري هو واقع العرب والمسلمين اليوم، قلنا إن ذلك أدعى إلى التساؤل عن تلك العوامل التي أدت بأمة عريقة في العلوم إلى التأخر في مضمار سباقها، وهنا سيجد القادة الأمريكيون والغربيون أنفسهم في دائرة النقد والاتهام، فذلك حصاد مرير لعقود من سيطرة الاستعمار بصوره المتعددة، تم فيها فرض التخلف على بلاد العرب والمسلمين من خلال وسائل شتى.. منها فرض أنظمة حكم مستبدة قاهرة، في كثير من دولنا.

والاستبداد ليس مجرد مشكلة سياسية؛ إنه أحد أكبر معوقات إنتاج المعرفة. هذه الأنظمة تقوم بأدوار وظيفية تحقق مطالب الاستعمار الذي أنتجها، والذي تقوم بأمره، وتستمر بإرادته، وتجعل أولوياتها حفظ أمنها وسلامتها، وفي سبيل ذلك تلتهم منظومتها الأمنية معظم ميزانيات شعوبها، ويلتهم الفساد السياسي والاقتصادي معظم ما تبقى منها.

فتنهار المؤسسات العلمية، وتتلاشى مخصصات الاستثمار في البحث والتطوير، وتتراجع مكانة العلماء، ويتعرضون للقهر السياسي والعسكري، وتضيق مساحة الحريات الأكاديمية، فلا يجدون غير الاستسلام لإغراءات الغرب بالهجرة إليه، حيث يفسح أمامهم طرق البحث والإبداع، ليخسر العالم العربي والإسلامي خيرة عقوله، فضلًا عن الحصار العلمي والمعرفي المفروض على بلادنا، والانتهاب الممنهج لمواردها، والاضطهاد الصارخ لمن تبقى فيها من العقول الواعدة والنابهة.

ويمكننا سرد أسماء علماء كبار ضاقت عليهم آفاق البحث في بلادهم، وأتاحها لهم الغرب فنبغوا، منهم أحمد زويل وفاروق الباز المصريان، ومنهم عمر ياغي الأردني، وإلياس زرهوني الجزائري، وغيرهم.

وإننا حين نذكّر بجرائم عاشها الشرق تحت القصف الأمريكي لا نريد أن نرد على العصبية بمثلها، وإنما نهدف إلى إعادة الأمر إلى نصابه، وتأكيد الدور الأمريكي في فرض التخلف العلمي والحضاري.

فنحن مأمورون بالعدل حتى مع من نخاصمهم، قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: 8].

فما زالت دماؤنا تنزف من آثار العدوان الصهيوني — المدعوم بالمال والسلاح الأمريكي — على أهل فلسطين، وبخاصة غزة، حيث طال القتل والتدمير مئات العلماء والباحثين، وآلاف الطلاب، كما استُهدفت البنية التحتية من جامعات ومعاهد ومدارس ومراكز بحوث.

لقد ظن العدوان الصهيوني والأمريكي أنه أفلت بجريرته التي ارتكبها في غزة على مدى عامين، فإذا بغزة تلقي بتأثيرها على الخارطة السياسية الأمريكية، وعلى وعي الشعب الأمريكي في انتخابات الكونجرس الأخيرة.

إن تخلف المجتمعات لأسباب موضوعية لا يبرر احتقار شعوبها، كما أن التعميم العنصري لا يعفي صاحبه من فهم التاريخ، ولا يعفي أمريكا والغرب من المسؤولية عما آلت إليه مصائر البحث العلمي في بلادنا.

إن مثالًا واحدًا لما أنتجته السياسات الأمريكية في العالم العربي كفيل برد غرور الادعاء بحتمية التخلف العربي، فقد كان العراق منذ أوائل الثمانينيات يقدم نموذجًا واعدًا في البنية العلمية والبحثية، فما زالت به السياسة الأمريكية حتى فرضت على شعبه الحصار بضع عشرة سنة.

ثم جاء العدوان عليه في أوائل الألفية الثالثة ليدمر هذه البنية العلمية، ويفسح المجال لحرب أهلية طائفية تتعقب علماء العراق، فتقتل منهم المئات، ويفر تحت وقعها آخرون، وتنهب الآلة العسكرية الغازية متاحف العراق ومراكز مخطوطاته ووثائقه، إما بنفسها، أو بغض الطرف عمن فعل ذلك.

الإسلاموفوبيا من مواقع السلطة

وتصريحات الرئيس الأمريكي في هذا الصدد مما يثير مخاوف حقيقية من تشجيع الإسلاموفوبيا، وإن كان المستهدفون بها مواطنين ولدوا وعاشوا في أمريكا، تحت مظلتها الدستورية والقانونية.

لقد وصف الرئيس الأمريكي د. عبد الرحمن السيد بأنه إرهابي، لا ينبغي أن يُسمح له بالوصول إلى الأسرار الأمنية الأمريكية، وشبّه دخوله مجلس الشيوخ بدخول إرهابي إلى مبنى الكابيتول، مستدعيًا أحداث 11 سبتمبر. وقال إنه — أي الرئيس — جاء إلى ميشيغان لمنع عضو من الإخوان المسلمين من أن يصبح عضوًا في مجلس الشيوخ.

وهكذا تحول الانتماء الديني أو السياسي إلى قرينة اتهام على نحو يتناقض مع نصوص الدستور الأمريكي، والصورة الذهنية التي يهتم الساسة الأمريكيون بتصديرها عن دولتهم.

أما ميزان القرآن فلا يجعل الانتماء الديني أو السياسي قرينة إدانة، بل يطالب أصحاب الاتهام بالدليل، قال تعالى: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: 111] .

ولو استحضرنا تصريحات سابقة لوزير الدفاع الأمريكي بيت هيغسيث — الذي استخدم تعبيرات من قبيل «الحملة الصليبية» في الدعوة إلى حماية القيم اليهودية والمسيحية، ووصف الإسلام بأنه ليس دين سلام، وأنه لم يكن كذلك قط — لتأكد لنا أن موجة الإسلاموفوبيا في أمريكا لا تصدر من شخصيات هامشية، وإنما من مسؤولين في مواقع قيادية، أو من الرئيس نفسه.

وأنها شديدة الخطر لما تمثله أمريكا اليوم في العالم من قوة ونفوذ وتأثير، وأنها تزكية لمفهوم صدام الحضارات الذي روج له صمويل هنتنجتون بما يحمله من نذر سوء، حيث تنزلق إليه أكبر قوة مادية يمتلك شفرتها النووية من يفتقدون إلى موازين العدالة، واحترام القيم والمشاعر الإنسانية.

إن عالمنا اليوم بما يضج به من أسباب الشقاء والظلم لا يحتاج إلى من يؤجج بين شعوبه عوامل الشقاق، ويدق طبول الصراعات الدينية والعرقية، بل هو في أمسّ الحاجة إلى التواصل الإنساني الرحيب، والنظر العادل إلى قضايا شعوبه، وإرساء قيم التسامح والسلام.

وقد فتح القرآن باب البر والعدل مع المخالفين في الدين ما داموا غير معتدين، فقال تعالى: ﴿لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: 8].

وذلك جوهر رسالة الإسلام التي ندعو الناس إلى فهمها وتدبرها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: 90].

الدكتور صلاح عبدالحق

القائم بأعمال فضيلة المرشد العام لجماعة الإخوان المسلمين

الجمعة 3 جمادى الآخرة 1448هـ الموافق: 13 نوفمبر 2026 م